الصورة الاجتماعية في روايات مجيد طوبيا

إعداد

محمد صلاح الدين السيد مصطفى

باحث دكتوراه في اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة قناة السويس

الملخص باللغة العربية :

عند قراءة الأعمال الروائية للأديب المصري «مجيد طوبيا» يظهر أنه قدم حالات متنوعة من الحياة من خلال الأحداث والشخصيات التي تناولها عبر فترات تاريخية متنوعة، وعبر حالات اجتماعية متعددة، وكان المجتمع في كل عصر هدفًا يتناوله، فقد ناقش «مجيد طوبيا» الكثير من القضايا الاجتماعية خلال الفترات الزمنية المتعددة التي تعرض لها في رواياته، وذلك في ضوء المتغيرات التاريخية والسياسية والأيديولوجية التي تمر بها أحداث الروايات التي يتناولها هذا البحث، والذي يهدف إلى دراسة الصورة الاجتماعية في روايات «مجيد طوبيا» من خلال منهج الدراسات الثقافية، والذي يقوم بتحليل الحالة الثقافية للمجتمع وقضاياه، وكيف قدمت من خلال الشخصيات والأحداث أفكارًا ثقافية تعبر عن واقع المجتمع وقضاياه داخل روايات «مجيد طوبيا»، وما هو دور الإنسان في المجتمع خلال الروايات التي تمر أحداثها بتحولات متعددة، عبر الأحداث والمواقف.

القضايا الاجتماعية لها دور كبير في منهج الدراسات الثقافية، وذلك لتنوع أثرها الثقافي؛ بين الأثر الاجتماعي والأثر السياسي، ودور المرحلة التاريخية والأيديولوجيا في تناول المجتمع وتقديم الحالة التي يكون عليها، وعند دراسة روايات «مجيد طوبيا» تظهر حقيقة المجتمع؛ مثل صراع الإنسان مع السلطة السياسية، وكذلك صراع الإنسان والمجتمع مع الأفكار الجديدة على المجتمع، وكيف قدمت تلك الروايات قدرة الإنسان على التعامل مع المشكلات الخاصة بالمجتمع من منظور الدراسات الثقافية، ومن أهم الأزمات الثقافية التي تناقشها الروايات الصراع الأيديولوجي وأثر التطور الفكري على المجتمع، من خلال حركة الشخوص والأفراد.

English Abstreact :

During reading the literaric works of the Egyptian writer Majid Toubia, it becomes clear that he presented various situations of life through events and characters that dealt with them through

commitment and diverse management, and through multiple social situations, and society in every era was a goal that he addressed. Majid Toubia discussed many reasons. Through the social time periods presented in his novels, and in the political and ideological lights dealt with in the novels discussed in this research. This research Which aims to study the social life in the novels of "Majid Toubia" through the cultural studies approach, which analyzes the cultural state of society and its issues, and how it presented, through the characters and events, cultural ideas that express the reality of society and its issues within the novels of "Majid Toubia" and what is the role of man. In society through novels whose events go through multiple transformations, through events and situations.

Social issues have a big role in the cultural studies curriculum, due to the diversity of their cultural impact. between the social impact and the political impact, and the role of the historical stage and ideology in dealing with society and presenting the state it is in, and when studying the novels of "Majid Toubia" the reality of society becomes clear. Such as the struggle of man with political authority, as well as the struggle of man and society with new ideas to society, and how these novels presented the ability of man to deal with the problems of society from the perspective of cultural studies, and among the most important cultural crises that the novels discuss is the ideological conflict and the impact of intellectual development on society, from During the movement of tho characters.

المقدمة

كان المجتمع في روايات «مجيد طوبيا» حالة فنية متعددة الجوانب في ظل إدارة الأديب للأحداث والشخوص والتعبير عن النوازع النفسية خلال بنية العمل الروائي هذا إذا درسناه من الناحية الأدبية المعتادة.

أما عبر إعمال «الدراسات الثقافية» في الأعمال الروائية لـ «مجيد طوبيا» فيظهر المجتمع في أعماله الروائية يحمل خطابًا ثقافويًّا خاصًّا، عبر تفاعلات التاريخ وتحولات السياسة والأبعاد الاجتماعية، وهذا النمط البحثي – «الدراسات الثقافية» – يعتبر تجليًا من تجليات ما بعد الحداثة الأدبية، فقد هَدِفت الدراسات الثقافية والنقد الثقافي إلى إعمال الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية والنظريات الفلسفية والعلمية في النص الأدبي للكشف عن هذه المضمرات التي تتخفى خلف النصوص، وهذه الأنساق الثقافية المضمرة يعطي الكشف عنها رؤى وأبعادًا جديدة للثقافة؛ مما يجعلها تتجاوز إطار النظرة لمنطوق ظاهر النص الأدبي إلى قراءة ما هو مضمر خلفه من بعد ثقافي حضاري ينطلق منه النص الأدبي، وهذا البحث المقدم لمجلة «كلية الآداب والعلوم الإنسانية» موضوعه «الصورة الاجتماعية في روايات مجيد طوبيا».

عبر هذا البحث يظهر دور الثقافة ومعطياتها وكيف تخفت داخل بنية العمل الروائي لدى «مجيد طوبيا» بهدف استكشاف المجتمع عبر رواياته، وكيف تخفت عبر سياقها الاجتماعي والسياسي والتاريخي والمؤسساتي – ليكون فهمها وتفسيرها بطريقة أكثر تحررًا واتساعًا في ضوء التعامل مع النص الأدبي لتلك الأعمال الروائية.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على تتبع الصورة الاجتماعية في بنية الأعمال الروائية لدى «مجيد طوبيا» عبر أعماله الروائية، واستنطاق المضمر الثقافي لها عبر الخطاب، وذلك في ضوء تفاعلات الخطاب الفلسفية والاجتماعية والسياسية والأيديولوجية.

أقسام البحث:

- مقدمة: تعرض لموضوع البحث وتقسيماته، ثم نبذة مختصرة عن فكرة الأنساق الثقافية، ومعناها ودلالتها.
- أقسام البحث وأهدافه؛ حيث تحليل الصورة الاجتماعية داخل روايات «مجيد طوبيا».
- قضايا البحث؛ حيث استعراض الأنساق الثقافية للصورة الاجتماعية داخل روايات طوبيا.
- الخاتمة، وتقديم نتائج البحث.

تعريف الأنساق الثقافية لغة:

عند شرح الدلالة اللغوية للأنساق الثقافية، فقد جاء في معجم (لسان العرب) لابن منظور: «النَّسَق في كل شيء وما كان على طريقة ونظام واحد عام في الأشياء وقد نسَّقه تنسيقًا»[١]. أما في القاموس المحيط؛ فقد أتت كلمة (النسق) تحت معنى «ما جاء من كلام على نظام واحد... و(التنسيق) هو التنظيم»[٢]، وعلى

هذا سارت معاجم اللغة العربية في نسق؛ النون والسين والقاف دلالة على تتابع في الشيء، ومن المجاز: كلام متناسق، وقد تناسق كلامه، وجاء على نسق.

كون نظرية الأنساق الثقافية في قراءة العمل الأدبي أتت وليدة للفكر الغربي، كتجلٍّ من تجليات ما بعد الحداثة الأدبية؛ فتكشف لنا اللغة أن كلمة نسق (asusteme) في اللغة اليونانية (sustema) التنظيم والتركيب والمجموع؛ أي إنها تشترك مع المعنى العربي في التنظيم والبحث.

تعريف النسق من منظور فلسفي يكشف أن «المقصود بالنسق في الفلسفة والعلوم التنظيرية مجموعة من الأفكار العلمية أو الفلسفية المتآزرة والمترابطة يدعم بعضها بعضًا ومؤلفة لنظام عضوي متين»[٣].

تعريف النسق اصطلاحًا:

يذكر الدكتور/ سعيد علوش أن:

١- «النسق» عند الفيلسوف الفرنسي «ميشيل. فوكو» علاقات تستمر وتتحول بمعزل عن الأشياء التي تربط بينها.

٢- ويعمل «النسق» على بلورة منطق التفكير الأدبي في النص.

٣- كما يحدد «النسق» الأبعاد والخلفيات التي تعتمدها الرؤية[٤].

لقد تعددت الرؤى التي عرفت النسق أنه نظام يقوم على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحدًا، تقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها. ولعل هذا يبرز حقيقة أن النسق رابط خفي بين مجموعة من عناصر واضحة يعطيها الأهمية بتوحيدها؛ لتحمل رسالة خفية عبر قراءة هذا النسق، فإذا حدث انفصال لهذه العناصر فقد كل عنصر منها معناه.

تعريف كلمة الثقافة لغة:

أما كلمة الثقافة فلها في اللغة معانٍ عديدة بحسب سياقها في الجملة، وبالعودة لمعجم «لسان العرب» تظهر مادة: «ث، ق، ف» «ثَقُفَ، ثَقِفَ الشيء ثَقْفًا ثِقَافًا وثقوفة: حذقه ... وثَقُفَ الرجل ثقافة أي صار حاذقًا خفيفًا»[٥]. ومع تطور الكلمة تغيرت وحملت معنى اصطلاحيًّا، فصارت الثقافة الإلمام بمعارف متنوعة، وصفة تقال عن الإنسان المتمكن من العلوم والفنون والأدب.

تعريف كلمة الثقافة اصطلاحًا:

تعددت التعريفات الاصطلاحية الخاصة بكلمة «الثقافة»، وإن كان الملاحظ أن جلها انحصر في معنى واحد، ويأتي من أهم التعريفات التي حملت المعنى الاصطلاحي لكلمة «ثقافة» تعريف عالم الأنثروبولوجيا

الإنجليزي سير/ إ. ب. تايلور، فقد عرفها بأنها «ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والآراء والقدرات الأخرى وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضوًا في المجتمع»[٦]، كما أن الثقافة عند البحث عن تعريفها ودلالته تعتبر ذلك البناء المركب الشامل الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نمتلكه كأعضاء في المجتمع ويترسخ في ذواتنا من اعتقادات ورؤى؛ سواء اكتسبناها من البيئة أو توارثناها.

لقد تعددت الكثير من تعريفات الثقافة اصطلاحًا؛ فمنها ما ركز على الجانب المادي للإنسان ومنها ما اجتاز هذا الجانب وربط الثقافة بالجهة المعنوية والروحية، فجاء تعريفه منصبًّا على المعارف والمعتقدات والأخلاقيات والقوانين والقدرات الأخرى وتناول عادات الإنسان المكتسبة في ضوء اعتباره عضوًا من المجتمع، بل إن فريقًا من كبار النقاد نظر إلى كلمة «الثقافة» بحسب ما تعنيه من نمو الفرد أو نمو فئة أو طبقة أو نمو مجتمع بأسره، وإن جزءًا من هذه الدعوة منصب على أن ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة، والتي بدورها تتوقف على ثقافة المجتمع كله الذي تنتمي إليه تلك الفئة أو الطبقة، وبناء على ذلك فإن ثقافة المجتمع هي الأساسية.

أما عالم الاجتماع فورد، فإنه يعرف الثقافة تعريفًا في ضوء فعلها في المجتمع والحياة، فيقول بأنها: «عبارة عن الطبقة التقليدية المتبعة في حل المشكلات»[٧]، ولكن على صعيد آخر تأتي رؤية أخرى للثقافة لدى علماء الأحياء؛ فهي — في نظرهم – اكتساب وراثي أو فطري ينتقل إلى الإنسان دون أن يبذل أي جهد، ولعل هذه الرؤية البيولوجية تنكر حقيقة مفادها أن الإنسان هو المغير والصانع في الأصل لثقافته. أما «الثقافة» عند علماء التاريخ فيرونها ما ترسب في الإنسان من أحداث ماضية تاريخية؛ حيث تتراكم خلال السياق الحضاري أو تترسب في الزمان التاريخي، فتنمو وترتقي وتنتقل وتهاجر من منطقة إلى أخرى، وهذا التعريف للثقافة لم يراعِ حقيقة مفادها أن لو كانت الثقافة تعني ترسبات من الماضي احتملها الإنسان وسار عليها لما تغير الإنسان، وظل على حاله البدائية في شتى المجالات، ولكن يدخل في الثقافة عامل اكتساب بفعل المعرفة المتجددة والتجارب الحياتية. إن تعريفات الثقافة تعددت وتنوعت في الفكر الغربي، ولعل ما جاء جامعًا لدلالتها مستوعبًا ما سبقه من تعريفات كان تعريف اليونسكو للثقافة عام ١٩٧٠ «أنها كل ما يتصل بالإنسان فكرًا وخلقًا وبدنًا، بما في ذلك من تدريب نفسي، باعتبار الإنسان عمن سواه من الكائنات الحية الأخرى؛ خاصة فيما يتعلق بإمكانات التعلم واكتساب الخبرات والمهارات»[٨].

لا تتوقف الرؤى التي تحاول تفسير الثقافة وتعريفها عند هذا الحد؛ فهناك رؤية حول دلالة الثقافة ومعناها تنظر إليها أنها مجموعة من المعطيات التي تميل إلى الظهور بشكل منظم فيما بينها مُشكِّلة مجموعة من الأنساق

المعرفية الاجتماعية المتعددة التي تنظم حياة الأفراد ضمن جماعة تشترك فيما بينها في الزمان والمكان؛ فالثقافة ما هي إلا التمثيل الفكري للمجتمع، والذي ينطلق من العقل الإنساني في تطوير عمله وخلق إبداعاته ومدى تأثيره وتأثره.

تعريف النسق الثقافي:

تورد المراجع للنسق تعريفات متعددة لعل من أهمها رؤية علماء الاجتماع أنه «مجموعة مصالح ونواحي نشاط متصلة بعضها ببعض، ويفترض في ذلك وجود نظام مكون من أجزاء أو مظاهر في ترتيب منظم يتميز بالتنسيق في العمل والتكامل في البنيان»[٩]، وللمفكر عبد الله الغذامي رؤيته في تعريف النسق المضمر؛ حيث تتحول النظرة إلى النص؛ فهو ليس نصًّا أدبيًّا وجماليًّا فحسب، ولكنه حادثة ثقافية، ومن ثم فهو يرى أن: «الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتأويل، مع التسليم بوجود الدلالات الأخرى الصريح منها والضمني»[١٠]، فالغذامي لا ينكر القيم الجمالية في النسق الثقافي، بل يراها تلعب أدوارًا خطيرة؛ من حيث هي أقنعة تختبئ من تحتها الأنساق وتتوسل بها للقيام بعملها الترويضي، الذي ينطلق منه «النقد الثقافي» لقراءة العمل الأدبي باعتباره حادثة ثقافية تتعدد فيها الرؤى. أما تعريفه للنسق المضمر فهو «كل دلالة نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء؛ لتغرس ما هو غير جمالي في الثقافة».[١١]

الأعمال الروائية موضوع البحث:

- أبناء الصمت – مجيد طوبيا – دار بتانة للنشر والتوزيع – ط ١ – مصر – ٢٠١٨.
- أوراق العذراء – مجيد طوبيا – دار تبارك للنشر والتوزيع – ط ١ – مصر – ٢٠١٨.
- ترميم قضية أحمس – مجيد طوبيا – الهيئة العامة المصرية للكتاب – ط٢ – مصر – ٢٠٢١.
- تغريبة بني حتحوت: «الجزء الأول» – مجيد طوبيا – الهيئة العامة لقصور الثقافة – مصر – ٢٠١٩.
- تغريبة بني حتحوت: «الجزء الثاني» – مجيد طوبيا – الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر – ٢٠١٩.
- حكاية ريم الجميلة – مجيد طوبيا – دار بتانة للنشر والتوزيع – ط١ – مصر – ٢٠١٨.
- حنان – مجيد طوبيا – الهيئة العامة المصرية للكتاب – مصر – ١٩٨١.
- دوائر عدم الإمكان – مجيد طوبيا – دار تبارك للنشر والتوزيع – ط ١ – مصر – ٢٠١٨.
- عذراء الغروب – مجيد طوبيا – دار تبارك للنشر والتوزيع – ط ١ – مصر – ٢٠١٧.
- غرفة المصادفة الأرضية – مجيد طوبيا – مؤسسة روزاليوسف – سلسلة الكتاب الذهبي – مصر – ١٩٧٨.
- الهؤلاء – مجيد طوبيا – مكتبة غريب – ط ١ – مصر – ١٩٨٣.

أهداف البحث:

- مناقشة مدى ارتباط القضايا الاجتماعية بالدراسات الثقافية.
- الكشف عن البعد الاقتصادي لدى «طوبيا» في ضوء تحولات المجتمع داخل بنيته الروائية.
- بحث العلاقات السلطوية داخل المجتمع.
- الثورة وأثرها على المجتمع لدى طوبيا.

علاقة القضايا الاجتماعية بالدراسات الثقافية:

تنشأ الثقافة عن احتكاك الإنسان بالبيئة المحيطة به وتفاعله معها فيضيف إليها ويكتسب منها؛ ومن ثم مثل المجتمع وصورته منطلقًا قويًّا للدراسات الثقافية، بما يحمل المجتمع من عادات وتقاليد وأفكار وعلاقات تنشأ بين الإنسان والسلطة والإنسان والبيئة المحيطة به، والدراسات الثقافية كمنهج لقراءة العمل الإبداعي تسعى لتحليل القيمة الثقافية التي يقدمها المبدع في عمله باعتباره حدثًا ثقافيًّا؛ ومن ثم فصورة المجتمع وما يمر به داخل دائرة الإبداع يمثل ركنًا أساسيًّا في العمل الإبداعي، وذلك من خلال التاريخ والسياسة والاقتصاد وتمثلات الفكر الروحي والمادي عبر الأيديولوجيات المختلفة، وقد نتج عن هذا أن عند تحليل الأعمال الإبداعية ثقافيًّا يظهر المجتمع وقضاياه خلال النتاج الإبداعي، وقد أتت روايات طوبيا من زواياها المتعددة زاخرة بالقضايا الاجتماعية تعبر عنها وعن دورها في تشكل بنية الحدث الروائي، وفي ضوء تحليل هذه الصورة الاجتماعية عبر الدراسات الثقافية يظهر ذلك عبر الأنساق الآتية:

أولاً: نسق بنية المجتمع الاقتصادية:

مرت حياة «مجيد طوبيا» (١٩٣٨ – ٢٠٢٢) بتحولات اقتصادية دعمتها التغيرات السياسية التي مر بها العالم، بين القوى الداعمة للاقتصاد الرأسمالي، والقوى الداعمة للاقتصاد الاشتراكي، ورغم أن رواياته تناولت مساحة جغرافية متسعة، وعمقًا تاريخيًّا متشعبًا إلا أن الروح الاقتصادية التي مرت في مجتمع «طوبيا» الروائي تراوحت ما بين رسوخ الرأسمالية وقوتها، والرغبة العاطفية في تحقق العدل الاشتراكي، ويظهر ذلك هكذا:

الرأسمالية المجتمعية:

عبرت روايات «طوبيا» عن مسارات زمنية متعددة كان النظام الاقتصادي المهيمن فيها يحمل الطبيعة الرأسمالية كونها كانت النظام الاقتصادي الشائع في العصور القديمة والوسطى، وفي ظل ذلك ظهرت سطوة رأس المال في الأفعال الثقافية التي تمارسها المجتمعات؛ ففي رواية «ترميم قضية أحمس» يتسم المجتمع في بنيته بالطبيعة الرأسمالية البحتة؛ حيث يتربع على قمة الهرم الرأسمالي «الملك» وبجواره الكهنة وقادة الجند، ويأتي الفلاح والعامل في أسفل الهرم، وتظهر الطبقية الرأسمالية للمجتمع بين موائد البسطاء التي تحوي الخبز والفول والسمك والعسل ومشروب «الجعة»، أما موائد الأثرياء، فيقدم عليها «طوبيا» أنواع اللحوم والمخبوزات

والنبيذ، وتظهر سطوة رأس المال على المواطن كثقافة يمارسها المحتلون «الهكسوس» تجاه الشعب المصري، كما أن قوة رأس المال هي التي تدفع ملوك مصر إلى غزو شعوب الشمال والجنوب، لتأمين الموارد، وتظهر قوة الرأسمالية عبر الرواية حين يتاجر الكهنة بالدين حرصًا على مكتسباتهم؛ فكهنة الإله «بتاح» يباركون الرعاة الهكسوس؛ حرصًا على مكتسباتهم المالية، والملك «رمسيس الثاني» يُظهر تقديسه للربة «عنات» الأسيوية؛ من أجل إحكامه السيطرة على غرب آسيا في الشام وثرواته. أما من ناحية المواطن العادي؛ فإن الثقافة الرأسمالية تظهر في فشل مشروع الملكية الجماعية القريب من الاشتراكية، وانتصار الملكية الفردية عبر انتصار «تاخارو» على أختها «ورنيرو»، ونجاحها وبقية الورثة في تفتيت الضيعة الموروثة عن الجد «نشى».

أما عبر رواية «تغريبة بني حتحوت» والتي تمر أحداثها بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ حيث البنية الاجتماعية تتسم بالرأسمالية الإقطاعية، ويظهر التباين الرأسمالي في القهر الواقع من الطبقة الغنية التي تتربع على قمة هرم المجتمع تجاه الطبقة الكادحة، فالوالي الباشا العثماني والأمراء المماليك يسيطرون على موارد الإنتاج في البلاد ويرهقون الفلاحين والصُّناع بالضرائب، وتظهر الفجوة الطبقية بين الأغنياء والفقراء في تصوير «طوبيا» لبيوت الفلاحين في قرية «تلة» المبنية بالطين، وما يظهر عليها من فقر وبساطة، في مقابل بيوت الأمراء والتجار، كما في وصف «طوبيا» لقصر «محمد بك الألفي» الذي سكنه «بونابرت» عندما جاء إلى مصر، كما تظهر الفجوة الطبقية في وصف «طوبيا» لملابس أمراء المماليك وموظفي الدولة مثل «الكاشف» وجنوده، في مقابل ملابس الفلاح الفقيرة، ويظهر الاستغلال الرأسمالي للفقراء كأدوات إنتاج في مشهد خضوع «الريس مرسي» أخي «حتحوت» لـ «مراد بك»، فقد صار ومركبه تحت سيطرته. أما فترة حكم «محمد علي»، فقد اتبع نظامًا رأسماليًّا احتكاريًّا في ضوئه اعتبر نفسه المالك الوحيد لكل شيء في مصر، فحول الملكية الفردية للمواطنين إلى ملكية خاصة للدولة المتمثلة فيه، وفي ضوء هذه الدكتاتورية الرأسمالية كان الفلاح يزرع ما يأمر به والصانع يصنع ما يأمر به، وكان سفر «حتحوت» و«الشاطر» بالأمر مع جيش «محمد علي» إلى السودان، وظلت الدكتاتورية الفردية الرأسمالية إلى عهد «محمد سعيد بن محمد علي» الذي أعطى الفلاح المصري الحق في امتلاك أرضه، ولعل هذا التحول السياسي الاقتصادي نتج عنه تحول ثقافي في وعي المواطن، فظهر اتجاه القومية المصرية The Egytian Nationalism.

أما رواية «الهؤلاء» فقد أخذت الرواية في رؤيتها الاقتصادية مسار الدكتاتورية الرأسمالية أيضًا كنمط اقتصادي، فكل مقدرات الدولة ومؤسساتها الفكرية تطيع الزعيم «الديجم»، ومن ثم مسار الثقافة لا يخرج عن رؤيته هو وحده؛ فيظهر قهر سيطرته الدكتاتورية عبر حال الهلع والرعب التي يعيشها المثقفون بسببه، وتوقع

أن أي قلم أو ساعة يحملان جهاز تنصت، كما يظهر عند مرور بطل الرواية على سجون المخافر؛ حيث شاهد فقر ومعاناة المواطنين المظلومين.

وعبر رواية «دوائر عدم الإمكان» تظهر طبيعة الرأسمالية الإقطاعية؛ حيث طبقة الفلاحين الفقراء التي ينتمي إليها «عواد» وزوجته «هنومة»، والقرية تخضع لسيطرة ضابط الشرطة، ورجل يُظهر التدين يدعى «الحاج حسين»، وأغلب أهل القرية يعانون الفقر، ويعملون أُجراء في الحقول، وعن وصف حالهم يقول «طوبيا»: «وقفت أرقب جني القطن في الغيط الكبير، الأولاد والبنات والنساء و«هنومة» وجسدها ينحني لتقطف القطن، ثم تضعه في عبها»(١٢).

أما سطوة الرأسمالية كنسق ثقافي يظهر متخفيًا عبر رواية «عذراء الغروب»، فهي تظهر في الإيقاع الريفي نفسه —كما في بعض روايات «طوبيا» – إذ الطبقة البرجوازية صاحبة الملكية الكبيرة بما تحوي من سطوة رأس المال، وفي المقابل تظهر الطبقة الكادحة — البروليتاريا حسب الاصطلاح الماركسي — تكدح من أجل استمرار حياتها؛ فالطبقة العليا في القرية تتمثل في «الهانم» زوجة سيد نجع الغروب؛ التي يخضع لها الفلاحون لما تملك من سطوة بملكية الأرض الكبيرة التي ورثتها عن زوجها؛ وبسبب من يخضع لها من رجال مسلحين يقودهم شيخ العربان «الشابوري»، فتظهر سيطرة رأس المال على المواطنين الكادحين في تسخيرهم يعملون أُجراء في الأرض الزراعية، وفي مشهد طاعة الفلاحين وكذلك رجال «الشابوري» العربان لها، وهم يردمون ما حفره المهندسون في مشروع ترعة الماء العذبة؛ رغم ما يحمل من خير ونفع كان الهدف منه استصلاح الأراضي وتمليك صغار الفلاحين أرضًا زراعية. كما أن سطوة الرأسمالية واستغلال البشر في رواية «عذراء الغروب» تظهر في حال أخرى عبر عمدة القرية «غرباوي» هاتك الأعراض الذي يمثل برجوازية استغلالية للفقراء بسبب عوزهم للمال؛ إذ بما يملك من غنى وتوفير فرص عمل للفلاحات الفقيرات كخادمات في بيته كان يهتك أعراضهن ويفض عذريتهن، معتمدًا على فقرهن. وقدم «طوبيا» في روايته «حنان» سطوة رأس المال وسحقه للإنسان عبر شخصية «نصر» رجل الأعمال، والتي ظهرت كنموذج لتحول المجتمع للاقتصاد الرأسمالي فترة الانفتاح والتحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية؛ بما يمتلك من سطوة رأس المال المتمثل في شركته وطموح الرأسمالية النهم، ومن ثم فهو في سبيل ذلك يسحق زوجته «حنان»، فلا قيمة لمشاعرها العاطفية ولا لغريزتي الأمومة والجسد لديها؛ فيهملها إهمالاً شديدًا.

أما عبر رواية «أبناء الصمت»؛ فإن سطوة الرأسمالية في علاقات العمل والإنتاج وأثرها على الكادحين من الطبقة الدنيا ظهرت عبر فشل الاشتراكية في تحقيق وعودها؛ إذ حدث الرواية يجري في حقبة كانت الدولة تأخذ فيها بالنهج الاشتراكي «فترة آخر الستينيات ومطلع السبعينيات»، ولكن الأحداث تكشف أن ما حدث كان تحولاً من الرأسمالية الإقطاعية في العهد الملكي إلى رأسمالية الدولة لا الاشتراكية، وذلك في العهد

الجمهوري؛ إذ رئيس التحرير «أحمد راجي» والرقيب الصحفي يستغلان سطوة رأس المال في علاقة العمل ضد الصحفية «نبيلة عويس» في تقييد حرية رأيها وحقها في التعبير، مع التلويح بالتهديدات ضدها، بما يناقض روح الاشتراكية، ويؤكد ذلك ما رأته الصحفية «نبيلة عويس» من فجوة طبقية في حفلات الفنانة «رئيفة»؛ حيث الموائد العامرة والثياب الغالية العارية والخمور المستوردة، ويظهر رجال الفكر والسياسة الذين يتشدقون إعلاميًّا بشعارات الاشتراكية على حقيقتهم الرأسمالية.

أما في رواية «حكاية ريم الجميلة» فسلطوية رأس المال تظهر في والد «ريم» الذي كان امتلاكه المال الوفير يساعده على تحقيق رغباته، فيرى النساء من حقه للنشوة المتجددة والامتلاك.

الحلم الاشتراكي:

الاشتراكية كأيديولوجيا قد تضعضعت بانهيار قلعتها الكبرى المتمثلة في الاتحاد السوفيتي، وقد عبر عنها عطاء الأيديولوجيا داخل روايات «طوبيا» في مسار الأحداث والشخوص؛ إذ «الاشتركية» تظهر في أعمال «طوبيا» محاولة لا تلبث إلا أن تُجهض أو دعوة أيديولوجية يترقب حدوثها أو حدوث أحد مبادئها؛ ففي رواية «ترميم قضية أحمس» تظهر الاشتراكية عبر مسارين؛ أحدهما مؤسساتي سلطوي والآخر فردي خاص بالإنسان. أما المسار السلطوي المؤسساتي فيتجلى عبر أزمة الفرقة والانقسام، وفساد الموظفين؛ مما يجعل البلاد فريسة للانقسام والاحتلال من قبل الرعاة الهكسوس، فيورد «طوبيا» أنه مع عصر الاضمحلال صار كل أمير إقليم منعزلاً وكأنه ملك منفصل تاركًا وحدة الدولة، كما ضاع أهم عنصر في الاشتراكية، وهو العدالة الاجتماعية، ومن منظور مؤسساتي آخر بعد طرد الهكسوس وعودة الوحدة عمل الملك «أحمس» على إصلاح إدارة البلاد؛ فعزل الموظفين الفاسدين والخونة، وعين موظفين أكفاء، ولكن ذلك لم يستمر؛ إذ الوحدة ضعفت في عهد «إخناتون» وثورته الدينية، وكذلك في عهود ملوك آخرين. أما على مستوى الفرد فتظهر «الاشتراكية» أمنية فرد يسعى لها ولكن واقع الحياة يهدمها؛ فبطل الرواية «نشى» يوصي قبل موته ورثته بعدم بيع الضيعة أو تقسيمها وإنما يزرعونها معًا، ويقسمون ريعها بالتساوي فيما بينهم؛ بما يمثل مبادئ الاشتراكية، ولكن يسقط الحلم أمام النزعات الفردية.

في رواية «تغريبة بني حتحوت» تأتي الاشتراكية بقيمها في صور متعددة؛ فقد ثار الشعب ضد «نابليون بونابرت» في ثورتي القاهرة الأولى والثانية؛ لأن الضرائب أرهقت الناس ودفعتهم إلى الثورة رفضًا للظلم الاجتماعي من ناحية، كما أخذت الثورة منحى ثقافيًّا أيديولوجيًّا؛ إذ مغايرة المعتقد بين مجتمع ديني تحت نظام فرنسي علماني يؤمن بأيديولوجيا التنوير كانت أحد دواخل الثوار تجاه هؤلاء الكفار —كما رأوا – ولكن

الثورة ضد هذا الظلم قوبلت بقمع دموي، وأخفقت في آخر «التغريبة» الثورة العرابية، وظلت الاشتراكية حلمًا ودعوة تراود «طوبيا».

أما في رواية «دوائر عدم الإمكان»، فقد اتسمت بنية العمل بالطبقية الرأسمالية، وما فيها من سحق للطبقات الفقيرة، والتي تتمثل في الفلاحين الفقراء، ومنهم «عواد» وزوجته «هنومة» اللذان مثَّلا في بنية العمل محاولة ثورية؛ لتغيير واقعهما، ولكنها فشلت، فإرادة هنومة أن تتساوى ببقية النساء في أن تكون أمًّا كانت محاولة ساعية لعدالة المساواة، ولكنها ضلت الطريق في اعتمادها على الخرافة لا العلم. أما زوجها «عواد» فقد فسدت حياته وانتهى يهذي هائمًا، وذلك بخلاف نزوع «طوبيا» للاشتراكية في روايته «عذراء الغروب»؛ حيث ينشأ صراع بين «الهانم» صاحبة الملكية الزراعية الكبرى، وبين مهندسي مشروع قناة الماء التي ستكون سببًا في استصلاح الصحراء، وتوزيع الأرض على الفلاحين وتوطين البدو رجال «الشابوري»، بما يمثل صورة للاشتراكية في بناء مجتمع تتقارب فيه الملكيات وتذوب الفروق الطبقية، وبالفعل ينتصر مهندسو المشروع على «الهانم» التي ينهار قبر زوجها أمام ترعة الماء، فالعمل ينتهي بالاقتراب نحو تحقيق الحلم؛ ليظل هدفًا منشودًا عند «طوبيا»، وكذلك كان في روايته «أبناء الصمت»؛ إذ حال المجتمع المصري، وما مر به من كارثة فترة ما بعد هزيمة يونية ١٩٦٧، فتكشف الصحفية «نبيلة عويس» عن حجم الفساد الموجود في المجتمع ووهم أن الدولة تطبق الاشتراكية التي تدعو لحرية الإنسان من عبودية رأس المال وعلاقة العمل، وهي تضيق على رأي «نبيلة» في مسار الدولة وكشفها لحقائق المجتمع، كما ترصد «نبيلة» معاناة الطبقة الكادحة، وعند قيام حرب أكتوبر ١٩٧٣ تشعر أنها نالت ثأر خطيبها «مجدي»، ويبقى انتظار تحقق الحلم بتحرير الإنسان.

أما في رواية «غرفة المصادفة الأرضية» والتي بطلها «وليد» المعارض لحاكم بلاده، والذي يأتي هاربًا إلى مصر، وتكشف الرواية طبيعته الثورية؛ إذ هو يساري ولكن تظهر فيه عيوب اليسار – حسبما رسمها «طوبيا» – إذ لا يملك إلا شعارات ثقافية يتشدق بها، وعن ذلك يقول «طوبيا» على لسان «زوبا»: «كلاسيك وبورجوازية جدلية ومادية تاريخية وحتمية سيريالية، كل هذا الكلام أحفظه .. سنوات وأنا أجالس وليد[١٣] وأصحابه، وهم يقولون ويعيدون في هذه السيرة»[١٤]؛ بما ينقل ويكشف عن صورة أن هذا اليسار السياسي يردد مصطلحات فقط. أما خلال تواجده في «مصر»؛ فالقضية لا تتجاوز حد التخبط لديه، والتخفي من محاولات اغتياله، وبحثه عن نزواته الجسدية التي تأخذ نمطًا عشوائيًّا في مكان التقائه بالفتيات. كما أن حال الشتات التي هو واقع فيها بين امرأتين هما «مهجة» و«زوبا» تمثل رمزًا لشتات المثقف بين الواقع والهدف.
أما رواية «حنان»، فكون الطغيان الرأسمالي كان في الزوج «نصر» بما يمثل من طموح رأسمالي يقمع زوجته «حنان» إلا أن روح التمرد الاشتراكي الثائر تأتي في شخصية «الغجري» هذا المتمرد على قانون المجتمع وطبقيته، والرافض لروح الرأسمالية في التملك، بل وحتى روح التواضع المجتمعي؛ من النزول عن شيء من

الفردانية لأجل روح الاجتماع، ومن ثم حمل «الغجري» اسم «غريب»، وكأنه قريب إلى النظم اللاسلطوية في رفضه للقيود.

ظلت الاشتراكية حلمًا غير مكتمل في روايات «طوبيا»؛ كما في روايته «أوراق العذراء» والتي ترتبط ارتباطًا أصيلاً بالحقبة الاشتراكية في تاريخ مصر؛ فحدثها الرئيس واقعة «تجلي العذراء» بكنيسة الزيتون سنة ١٩٦٨ خلال الحقبة الاشتراكية، ويكشف «طوبيا» أن الاشتراكية ظلت مسارًا لم يكتمل، ولم يصل إلى عطاء كامل يؤكد تحققها، فلم تقدم للفرد والمجتمع وعودها كاملة؛ إذ شكاوى الجموع الملتفة عند «كنيسة الزيتون» تشهد حدث «تجلي العذراء» تكشف عن الفقر الذي ظل المجتمع يعاني منه، كما أن الخدمات الطبية لم تكن متوفرة للجميع.

أما عند التعرض لرواية «الهؤلاء» والتي تقدم صراع الفكر والسؤال العقلي مع السلطة القمعية، فإن مسار العمل يُظهر سحق الإنسان المثقف ذي العقل الباحث، ولكن طبيعة السلطة الدكتاتورية للزعيم «الديجم» ومؤسساته القمعية تصادر حق الإنسان في الحرية وإبداء الرأي، ويظهر في «طواف المخافر» حال المساجين من ظلم وانعدام للقانون.

أما رواية «حكاية ريم الجميلة»، فقد تحمل ظاهرًا بعدًا نسويًّا في بطلة العمل «ريم»، وما تمر به من تحولات مجتمعية وأثر للسلطة الذكورية عليها؛ إلا أنها تحمل باطنًا حالاً من الإضمار الثقافي، عبر تحولات «ريم» والتي تمثل صورة لمصر أراد «طوبيا» أن يقدمها، وقد عبر من خلالها عن التحول من إيقاع العصور الوسطى بعقلية الريف المصري إلى عالم المدينة، وما فيه من انفتاح وتحرر تسبب في وقوع «ريم» فريسة لضياع عذريتها، تحت مسمى الحرية الحديثة، ثم محاولة «ريم» إكمال مسارها والإفاقة مرة ثانية من كبوتها، إلا أن «طوبيا» عبر تحولات العمل الروائي، وما رسمه من انقلاب للشخصية في المرحلة الأخيرة للرواية جعلها وكأنها «مصر» ترتد عن طريق الحرية والحياة العصرية المتحررة، وتميل إلى العودة إلى حالها القريبة لفطرتها.

ثانيًا: نسق ثقافة المجتمع:

لعل تلك العلاقة النسقية بما تشمل من آلية الترابط بين السلطة والمواطن تحمل صورة الأساس لفهم طبيعة الحياة وتقديم قراءة سوسيوثقافية للنسق المضمر الذي يتخفى خلف العبارات ويدير حركة الأحداث والشخوص عبر بنية العمل الروائي؛ فكون النقد الثقافي يقوم على الدراسات الثقافية ونظرية الثقافة وأثرها في المجتمع ومسارها التعاقبي في الزمن، والتي انعكاسها يختلف من مجتمع إلى آخر، بحسب ما يعتقده الفرد

والجماعة – فإن أسلوب الاستجابة للمتغيرات في مجتمع ما يختلف بفعل ما تمثل الثقافة من سلطوية في حياة الفرد والجماعة، وهذا عماد النقد الثقافي في قراءة النسق المضمر داخل العمل الإبداعي، ووضع تفسيرات لسلوك الفرد أو الجماعة، وقد مثلت الثقافة نسقًا سلطويًا ذا أثر عميق على الفرد والجماعة في المجتمع عبر روايات «مجيد طوبيا»، ويظهر هكذا:

الثقافة الدينية:

في رواية «ترميم قضية أحمس» تظهر سلطة الثقافة الدينية في المجتمع؛ حيث روح المواطن المصري المرتبط بعقيدته عبر مشهد المصريين حليقي الرؤوس واللحى بملابسهم البيضاء؛ إذ كانت الديانة المصرية ترى وجود الشعر نجاسة للجسد، كما تظهر سلطوية الثقافة الدينية في المواطن المصري البسيط «نشى» ومدى بره الشديد بأمه، كما جاء في تعاليم الديانة المصرية القديمة، ويظهر الأثر السلطوي للثقافة الدينية على «نشى» في فكره ونظرته الأيديولوجية للحياة. أما عن أثر سلطوية الثقافة الدينية على المواطن العادي عبر رواية «تغريبة بني حتحوت»، فتظهر من خلال زوايا متعددة، لعل أبرزها رضوخ المواطنين للحكم العثماني؛ رغم ما حمل من مظالم وقعت على الفرد والمجتمع، وذلك لإيمان المواطن العادي بأيديولوجيا الأممية الإسلامية، وأن الدولة العثمانية دولة الخلافة، كما ظهر أثر سلطوية الثقافة الدينية على المواطن في كون العادات التي يمارسها في حياته مرتبطة بأوامر الدين، كما في الزواج أو تعدد الزوجات، مثلما فعل «الشاطر» بطل الرواية الثاني، وكذلك في الختان ويظهر أثر سلطوية الثقافة الدينية على المواطن العادي في ثورته على الفرنسيين، حين أسرفوا في الضرائب على المصريين، فثار الناس عليهم؛ لأنهم كفار في حين كانت ردود أفعالهم مع العثمانيين هي التمرد والانتفاض لا الثورة على دولة الخلافة الإسلامية، وعند معركة «التل الكبير» كان «أحمد عرابي» جالسًا مع المتصوفة يردد الأوراد ويقرؤون «البخاري»[١٥] استجلابًا للنصر.

أما عبر روايتي «أبناء الصمت» و«أوراق العذراء» فتظهر سلطوية الثقافة الدينية في معالجة جرح الهزيمة بعد حرب يونية ١٩٦٧؛ حيث في «أوراق العذراء» يجري الناس من مختلف الأديان والأيديولوجيات[١٦]؛ لحضور تجلي العذراء بكنيسة الزيتون، بفعل ما يجد المواطن العادي في الثقافة الدينية من ملء لجرح روحه في لحظات القهر والضعف والانكسار أمام قوة أكبر منه. أما في رواية «أبناء الصمت»؛ فقد أعطت سلطوية الثقافة على الفرد والمجتمع أثرًا في الفعل جعله يتجهز لحرب التحرير واستعادة الأرض؛ إذ الحرب قانونها الموت والاستشهاد. أما أثر سلطوية الثقافة الدينية في رواية «عذراء الغروب»، فيظهر عبر ملمحين نسقيين؛ أولهما الصراع من أجل بقاء القبر الخاص بـ «سيد الغروب»، وتقديمه على المصلحة العامة في شق ترعة الماء، بما في ذلك من قدسية للموت وتقديمه على الاستمتاع بالحياة[١٧]، وثانيهما يظهر في عقدة الذنب والخطيئة التي تركت أثرًا سيكولوجيًا في نفس «الهانم»؛ إذ تطاردها عقدة الذنب وكونها خانت زوجها. أما عبر رواية «دوائر

عدم الإمكان» فقد ظهر الأثر السلطوي للثقافة الدينية على الجماعة البشرية في صورة الإيمان بقدرية الحياة، وحتمية التسليم بالمكتوب والرضا به.

سلطة الثقافة الفلكلورية:

يلعب التحليل الفلكلوري والأثر الشعبي للثقافة دورًا متميزًا في الدراسات الثقافية، وقراءة الأنساق المضمرة للعمل الإبداعي، وخلال التحليل الثقافي للأثر السلطوي على الفرد والجماعة تظهر الثقافة الفلكلورية الشعبية موجهًا للمجتمع عبر تحكمها في الفرد والجماعة البشرية، وعبر الامتداد التاريخي والعمق الاجتماعي الذي تعرض له الأديب «مجيد طوبيا» في رواياته يظهر مدى الأثر السلطوي للفلكلور والثقافة الشعبية على البشر؛ وقد تحدث آرثر أيزابرجر عن قيمة الثقافة الشعبية لدى العلماء في التحليل الثقافي، فقال: «... فإنهم سيهتمون بالدور الذي تلعبه الثقافة الشعبية في المجتمع، وهي نقل الرسائل الأيديولوجية المتضمنة في الثقافة الشعبية والأسلوب الذي تنشأ به الثقافة الشعبية والتأثير النفسي للثقافة الشعبية على الأفراد وتصويرها المرأة وأفراد الجماعات الأخرى «العرقية والعنصرية والاجتماعية والاقتصادية» في نصوص الثقافة الشعبية وهكذا»(١٨)، وخلال روايات «مجيد طوبيا» تظهر آثار متعددة لسلطوية الثقافة الشعبية الفلكلورية، فعبر رواية «ترميم قضية أحمس» يظهر أثر الثقافة الشعبية في حب «نشى» لتربية الطيور في المنزل، كعادة مترسخة في هوية الشعب المصري، كما يظهر الفلكلور المصري في سيميائية استخدام حيوان «فرس النهر» ذلك الحيوان المتوطن في نهر النيل، والذي ذكره ملك الهكسوس «أبو فيس» في رسالته محذرًا الملك «سقنن رع». أما عبر رواية «تغريبة بني حتحوت» فإن الثقافة الشعبية تظهر عبر آثار متعددة متنوعة؛ مثل عادات الزفاف في القرية ورفع منديل الشرف أو نظام التعليم الشعبي في كتاتيب الريف قديمًا، كما تظهر الثقافة الشعبية في عادات الجماعات العرقية في السودان، كالتفاؤل بعذراء في الحرب تزغرد لدى أهل بلاد الفور وإلقاء السلام – سلام الموت – قبل بدء القتال لدى فرسان الشايقية، كما يظهر أثر الفلكلور لدى الفرنسيين في احتفالاتهم حين يطلقون البارود ويحرقون النفوط في الهواء ويعزفون نشيدهم القومي. أما عبر رواية «الهؤلاء» فيظهر فلكلور قمعي ذو أثر سلطوي من ابتداع الزعيم «الديجم» هو أن أي مواطن يجد مثقفًا أو كاتبًا يلبس ساعة أو يحمل قلمًا يردد كالآلة المدح في دولة «أيبوط» وزعيمها «الديجم». وفي رواية «دوائر عدم الإمكان» تلعب سلطوية الثقافة الشعبية الناتجة عن تدني المستوى الحضاري دورًا بارزًا يظهر في الاعتماد على طقوس السحر والعبادات الوثنية؛ لعلاج مشكلة عدم إنجاب «هنومة» عن طريق ممارسة «حلب النجوم»؛ تلك العادة البدائية.

سلطة الثقافة البيئية الاجتماعية:

إن المحرك الأول لنشوء الثقافة الإنسانية –كما ذهب علماء الأنثروبولوجيا – يرجع إلى تفاعل الإنسان مع البيئة المحيطة به؛ إذ من خلال الاحتكاك بتلك البيئة يكتسب الإنسان خبرات ومهارات متعددة وتحنكه

التجارب والدربة، فيقول ميشيل توماسيللو: «إن القدر الأعظم من تطور الكائن الفرد، والذي تتحقق من خلاله الخطة الهيكلية العامة إنما يحدث بينما الكائن الحي في تفاعل مع بيئته»[١٩]، وقد مثلت البيئة نسقًا سلطويًّا ثقافيًّا أثر على المواطن عبر روايات «طوبيا»؛ ففي رواية «ترميم قضية أحمس» تمثل البيئة الزراعية هيكل الروح الوطنية عند المواطن المصري في مقابل ثقافة الإنسان الرعوي «شعب الهكسوس»، مما يخلق ارتباط المصري بأرضه وحقله وبيته، مذ توطَّن الإنسان الأول وعرف الزراعة، وهذا أعطى سلطة ثقافية جعلت من المحتوم على الإنسان أن يحرر أرضه ويقاتل من أجل وحدتها، بل ويموت فداء لها، كما حدث مع الملك «سقنن رع»، وظل الهدف قائمًا حتى كان التحرير على يد «أحمس الأول»، وهذا الأثر ظهر عند حفيدة «نشى» بطل الرواية، وهي «ورنيرو» وابنها «حوي» اللذين رفضا تقسيم الضيعة. أما عن نسق سلطة ثقافة البيئة عبر رواية «التغريبة»، فالأحداث ومسار الشخوص عبر العمل متشابه إلى حد كبير مع «ترميم قضية أحمس»؛ فمصر ببيئتها ونيلها مصدر السلطة الثقافية والشعور بالهوية والوطن والأرض الخضراء، ومن ثم فالبطل «حتحوت» ابن المنيا يتغرب شمالاً وجنوبًا ويرى الأحوال والعباد، ولكن يظل مرتبطًا بالأرض؛ فيعود ليموت وسط أهله، والفلاح المصري تفرض عليه الطبيعة الزراعية لمصر ثقافة التوطن والأسرة والارتباط بالحقل، كما أعطى نهر النيل عبر «التغريبة» أثرًا ثقافيًّا على بطل الرواية «حتحوت» وأسرته الذين كان مصدر دخلهم على مركب ينقل البضائع؛ لتمر الحوادث التاريخية والمشاهدات لشمال مصر وللجنوب، ثم التوغل في بلاد السودان، وهناك تؤثر ثقافة البيئة على الناس في طبيعة ملابسهم التي تميل للون الأبيض وفي البيوت البدائية المخروطية الشكل يبنونها من النباتات والقش، وتوفر الماء والمراعي والأرض يجعل عندهم ميلاً قليلاً لحياة السلم. أما أثر البيئة وثقافتها في رواية «أبناء الصمت» فيظهر في ثقافة جبهة القتال؛ حيث الجنود وقائدهم في بيئة حرب تفرض عليهم الرضا بأقل القليل من الطعام، والحياة على مصدر ضوء ضعيف، وعندما وجدوا «نجفة» كانت تحت ركام القصف، فعلقوها للزينة فقط، وقد فرضت ثقافة بيئة الحرب على «القائد سامي» عدم الاستسلام للحزن واتباع المشاعر. أما عبر رواية «أوراق العذراء» فتظهر سلطوية البيئة الثقافية في فكرة «بيئة ما بعد الهزيمة»، والتي أدت لتفكك المجتمع من عدة زوايا بين الكاتب الشاب «أحمد مسعود» المادي الذي لا يؤمن إلا بالمحسوسات، وبين الشعب اللاهث وراء الغيبيات وعمليات الدعارة السرية. وفي رواية «غرفة المصادفة الأرضية» يظهر أثر للبيئة مرتبط بالحالة النفسية للبطل «وليد» القادم فرارًا من دولة عربية يضطهده حاكمها، وفي المقابل كانت مصر تحت قبضة قمعية، فتتعدد جلسات «وليد» مع رفاقه يحتسون الجعة «البيرة» على النيل، بما يصور أثر بيئة تغييب الوعي، ومن خلال رواية «دوائر عدم الإمكان» تقوم البيئة الريفية بتوفير مجال لثقافة «القيل والقال» والحسد؛ حيث يحقد الفلاحون على «عواد» الذي تزوج الجميلة الفاتنة «هنومة» ويتحدثون عن علاقتهما الجنسية، وأنه ليس كفئًا لها، كما توفر البيئة لـ «هنومة» لبن

الحمارة الذي تستعين به في طقس «حلب النجوم»، ومن البيئة تكون نهاية «هنومة» في بئر الساقية التي سقطت فيها.

أما عبر رواية «حكاية ريم الجميلة» فيحدث صراع بين الثقافة الوافدة من بيئة الغرب وثقافة البيئة الأم التي منها خرجت «ريم»؛ فهي بنت الصعيد وأب يُضيِّق على نساء أسرته؛ مما تسبب في موت أمها، وهو يعدد في زيجاته، وفي المقابل تأتي الثقافة الحديثة على «ريم» والوافدة من الغرب منعكسة على مجتمع المدينة؛ حيث الحرية والاختلاط، فتدخل في قصة حب وحمل ثم إجهاض، ثم تنطلق إلى عالم السهر والحفلات والرقص والشراب، وختامًا تتعادل ثقافة البيئتين داخلها بين التي تسعى للأسرة والاستقرار والبيت والأطفال، وبين مظهرها العصري كمذيعة.

سلطة الثقافة الكولونيالية:

إن أثر الثقافة الاستعمارية على المجتمع لا يتوقف عند حد الهجرات البشرية أو التوسعات الحربية بل في ظل العولمة The Globalization أخذت سلطوية الاستعمار الثقافي صورًا متعددة، وعبر الأعمال الروائية للأديب «مجيد طوبيا» تظهر سلطوية الثقافة الكولونيالية وأثرها على المجتمع والأفراد؛ بما تنقل من عادات اجتماعية أو معارف جديدة أو صفات خلقية تتقلب بين الإيجابية والسلبية، بحسب الأيديولوجيا الأخلاقية التي سيقوم تحليلها على أساسها؛ ففي رواية «ترميم قضية أحمس» تظهر ملامح الكولونيالية الثقافية في شعب الرعاة الهكسوس القادمين من الصحراء؛ إذ لم يقدسوا من آلهة مصر إلا «سوتخ» إله الصحراء والرمال والزوابع بكل ما يحملون من ثقافة بيئتهم الأم؛ بيئة الصحراء، كما جلبوا إلى مصر عادتهم الشكلية في تربية الشعر، والتي تفشو في سكان غرب آسيا، وهي كانت في عرف المصريين من العادات النجسة، وقد مثل ذلك الأثر الكولونيالي ملمح استهجان ورفض، كما تظهر سلطوية الثقافة الكولونيالية على المجتمع في حاجة المصريين إلى معرفة تركيب سبائك المعادن التي يصنعها الهكسوس؛ ليصنعوا أسلحة قوية منها. أما عبر رواية «تغريبة بني حتحوت» فموجات الاحتلال والتوسع الحربي تركت للكولونيالية الثقافية أثرًا سلطويًّا واسع المجال على المجتمع والأفراد، ويتراوح هذا الأثر بين السلب والإيجاب؛ فعبر فترة الحكم العثماني تعرض الفلاح المصري للإفقار الاقتصادي؛ بسبب الإجحاف الضرائبي، وكان من أثر الكولونيالية السلبي عليه – الفلاح المصري – تفشي الأوبئة والأمراض بفعل الجهل والتراجع العلمي، فانتشرت ثقافة العلاج البدائي والعلاج بالخرافات، كما تردى مستوى التعليم وانحسر في العلوم الدينية في الأزهر، والخوف من الضرائب وظلم الجباة أدى إلى تغيير الفطرة النقية للفلاح، حتى إن الفلاح المصري حمل السلاح وقتل، كما فعل أهل قرية «تلة» مع بعض المماليك، كما يظهر أثر الكولونيالية السيئ على كل من بطلي الرواية «حتحوت» و«الشاطر» حين اضطرهما

الفقر وظروف الاحتلال إلى قتل جندي فرنسي؛ لسرقة ما معه، كما تجسدت الكولونيالية في سلطويتها السيكولوجية السيئة على «حتحوت»، حين شهد إبادة قرى السودان على يد جيش «محمد علي». أما عن إيجابيات الثقافة الكولونيالية وما تُحدث من أثر سلطوي على المجتمع؛ فتظهر في فترة الحملة الفرنسية – رغم كونها استعمارًا – فقد عرف المصريون أول صورة للديمقراطية في «الديوان» الذي كونه «نابليون بونابرت» من المشايخ والأعيان ورجال الدين. أما عبر رواية «أبناء الصمت»، فيظهر أثر الكولونيالية الثقافية وسلطويتها في الصراع العربي الإسرائيلي، والذي أخذ نمط الصراع بين الشرق والغرب؛ والذي يكشف «طوبيا» عن هدفه وهو تدمير الشرق واقتصاده، فيصف الهجوم الإسرائيلي بقوله: «جاء رد العدو بأن فتح نيران مدفعيته بتركيز شديد على ميناء السويس، ومعامل ومخازن البترول بها، وعلى معامل التكرير»[٢٠]؛ ليقدم «طوبيا» صورة للأثر السيئ لثقافة المحتل في المجتمع، وعن سلطوية الثقافة الكولونيالية الوافدة على المجتمع خلال رواية «عذراء الغروب» تظهر تلك النسقية الثقافية بين آلة الحفر والتجريف التي هي نتاج الثورة الصناعية في أوربا داخل مجتمع القرية في مقابل قبر «سيد الغروب»؛ حين تأمر «الهانم» تابعها شيخ العربان «الشابوري» بأن يردم ما تم حفره من مشروع قناة الماء ليلاً؛ فيستعين بأعداد من رجاله يعملون ليلاً في ردم ما تم حفره من مجرى قناة الماء، ولكن في الصباح تعود آلة الحفر، وفي وقت قصير تطهر المجرى وترده محفورًا مرة ثانية، بعد جهد في ردمه قام به رجال «الشابوري».

خلال رواية «حكاية ريم الجميلة» تظهر سلطوية الثقافة الكولونيالية في صورة قميئة عبر شخصية «يونس فريد» ذلك الرسام الذي يدعي أيديولوجيا التنوير والإيمان بالثقافة المتحررة؛ ليوقع بالفتاة العذراء «ريم» ويسلبها شرفها، ثم بالتعاون مع طبيب مجرم يجري لها جراحة إجهاض في تطبيق غير أخلاقي لثقافة الحرية الجنسية القادمة من الغرب، وتلتقي معه في الأثر السلطوي نفسه للكولونيالية الثقافية «هيام بيروتي» التي لا تلتزم بإطار العلاقة الجنسية مع زوجها، كما تتسم بازدواجية الميول الجنسانية «bisexuality» وتتحرش بـ «ريم» محاولة الإيقاع بها. وعند التعرض لرواية «أوراق العذراء» فللثقافة الكولونيالية أثر يبرز عبر الأيديولوجيا خلال اعتناق الفلسفة المادية وإنكار الماورائيات والمعجزات، كما صرح بذلك «أحمد مسعود» للصحفية «منيرة»: «هل تؤمن بالمعجزات؟ لا، أنا أؤمن بما أحسه فقط»[٢١]، بما يشير لأثر الفلسفات المادية الوافدة من الثقافة الغربية وسلطويتها الثقافية التي ظهرت في المجتمع، عبر المذهب المعروف بـ: «الفلسفة الحسية التجريبية».

لقد لعبت الثقافة دورًا سلطويًّا بارزًا على المجتمع من زوايا متعددة وظهر أثرها عبر روايات «مجيد طوبيا» عبر الهجرات أو التوسع الاستعماري أو عبر الغزو الثقافي، في ظل خطاب العولمة المسيطر على وسائل الإعلام مع تطور وسائل الاتصال وطرق تبادل المعلومات.

ثالثًا: نسق الثورة في الرواية:

إن المجتمعات التي تعرض لها «مجيد طوبيا» اتسمت بالتنوع الجغرافي والعرقي والتعددية الثقافية، وخلال هذه المجتمعات حدثت تحولات وثورات منها ما حدث واكتمل ومنها ما فشل، وكل ذلك أثَّر على صورة المجتمع عبر أعماله الروائية؛ إذ طبيعة العلاقة بين المواطن والسلطة لا تتسم بالخضوع الدائم، بل يعتريها أحيانًا الرفض والتمرد الذي يبلغ حد الثورة، بما تحمل من نسق ثقافي يتخفى داخل بنية العمل الروائي، وتأخذ الثورة أشكالا بين ثورة الفرد وثورة المجتمع، والثورة الفكرية والثورة السياسية والثورة الجنسانية، وهذا النسق – نسق الثورة – يعرض لهذه الجزئية عبر صورة المجتمع في روايات «طوبيا» خلال هذه النقاط التالية:

الثورة السياسية:

عبر عدد من روايات «مجيد طوبيا» التي أخذت إطارًا تاريخيًّا ظهرت في تحولات المجتمع الثورة السياسية، «والثورة في كل الحالات هي انتفاضة طبقة لا تطيق القيود المفروضة عليها، وهي تستعين بالشعب بعد أن تبسط له قضيتها العادلة»[٢٢]؛ ففي رواية «ترميم قضية أحمس» كان احتلال الرعاة الهكسوس لمصر الحدث المحرك للرواية، ومن ثم كانت بداية تحرير الأرض من الغزاة هي الثورة من خلال حرب التحرير. أما عبر رواية «تغريبة بني حتحوت» فإن مسارها التاريخي يعرض للعديد من الثورات السياسية، كما في ثورتي القاهرة الأولى والثانية ضد الاحتلال الفرنسي، والذي نجح في القضاء على الثورتين عبر ارتكاب أبشع الجرائم ضد الأهالي، كما كان في انتفاضات الشعب المصري ضد ظلم «البرديسي بك» و«خورشيد بك»، وكما فعلت الثورة العرابية في وقوفها أمام ظلم «الخديو توفيق»؛ إذ بدأت ثورته فئوية تطالب بإصلاح شئون الجيش، ثم اتسعت لتطالب بإصلاح حال البلاد، وانتهت بالفشل واحتلال مصر.

أما عبر رواية «عذراء الغروب» فلم تظهر أحداث ثورة يولية ١٩٥٢؛ إذ يبدو أن أحداث الرواية كانت مع خمسينيات أو ستينيات القرن العشرين، ولكن يظهر حدث انعكاسي مقارب منها في تغيير النظام الإداري للقرى، فبعد أن كانت خاضعة لحكم «العُمد» والذي كان عائليًّا وراثيًّا بما يشبه النظم الملكية Monarchy صارت الدولة تنشئ في القرى «نقطة بوليس» تخضع لضابط شرطة، وعن هذا الحدث المتوقع يقول «غرباوي» العمدة: «الأكيد المؤكد أن الحكومة سوف تلغي «العمودية» من هنا... لن يهز هذا شعرة من رأسي .. سوف يأتي ضابط شاب حديث التخرج لن يجد من يسامره ويجالسه إلا أنا، ومن يدري ربما تكون له نفس الغية فنتقاسم أو يلتقط البكارى من بعدي»[٢٣]. أما حال الثورية فتظهر بطريقة هامشية في رواية «غرفة المصادفة الأرضية»، وذلك عبر الشخصية المحورية للرواية «وليد» الثائر العربي الهارب من بطش حاكم بلاده، والذي يأتي إلى «مصر» ولكن ثورته تأخذ حال التخبط الثقافي للمثقف المنزوي. أما الحدث التاريخي الذي يحمل بعدًا ثوريًّا ويسير داخل أحداث الرواية، فهو مظاهرات طلاب الجامعة التي كانت احتجاجًا على

الفساد الذي ظهر في فترة سبعينيات القرن العشرين، والتي هاجمتها قوات الشرطة، وقامت بفضها بالغاز المسيل للدموع والهراوات الغليظة. أما عبر رواية «أبناء الصمت» فقد مثلت العمليات الحربية التي شنها الجيش المصري خلال «حرب الاستنزاف» فعلاً ثوريًّا ضد الغرب وضد الاستعمار الإسرائيلي للأرض العربية، وظلت العمليات الحربية تتوالى إلى أن قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتي كانت قمة الثورة – وقتها – لاسترداد الأرض المحتلة.

ثورة الفرد على سلطة المجتمع:

قد لا يحدث التغير المجتمعي في بنية العمل الروائي بفعل الثورة السياسية الجماعية، ولكن فردًا داخل الرواية يثور على السلطة السياسية الحاكمة كردة فعل على القمع المجتمعي الذي يتعرض له، كما حدث في رواية «ترميم قضية أحمس»؛ حيث رفضت نفس المواطن المصري «نشى» حكم الرعاة الهكسوس، ولهذا قرر ترك بيته وحياته والرحيل إلى مملكة الجنوب التي يحكمها الملك المصري «سقنن رع» رافضًا حكم الهكسوس الرعاة، كما ثارت المواطنة المصرية «نوب نفرة» على الحكم القضائي الظالم بأحقية الأرض للنصاب «خاعي». أما حال ثورة الفرد على قمع السلطة في رواية «تغريبة بني حتحوت»، فتأخذ صورًا متعددة؛ فبطل الرواية الثاني «الشاطر» تجتمع فيه ثورة الفرد على القدر وعلى السلطة السياسية؛ إذ الفقر والعوز والتشرد الذي عاناه؛ بسبب اجتماع هلاك أهله في «طاعون إسماعيل» مع إفقار الولاة العثمانيين والمماليك للبلاد، فصرح أنه يأكل مما يسرق من هؤلاء الظلمة، بل ويقتل ليسرق مثلما فعل مع الجندي الفرنسي الذي قتله وسرقه، وهذه الثورية الفردية ظهرت أيضًا عبر «أمشير» الذي كان كثيرًا ما يعترض على الأوامر، بل وانتقم لمقتل اثنين من أقاربه تحت التعذيب.

أما في رواية «أبناء الصمت» فإن روح الثورة الفردية تأخذ بعدًا نسويًّا عبر الصحفية الشابة «نبيلة عويس» لتمثل روح الثورة الفردية على تسلط «الرقيب الصحفي» و«أحمد راجي»، وتعترض على فساد المجتمع وما يعانيه من سلطوية وكبت لحرية النقد والرأي.

في رواية «دوائر عدم الإمكان» فإن الثورة جاءت من الفرد العاجز المشحون بثقافة الخرافة – على القدر الذي كان يعاني منه، وذلك عبر بطلي الرواية، وهما «هنومة» و«عواد»؛ إذ «هنومة» اعترضت على قدرها المتمثل في عجزها عن الإنجاب، وكانت ثورتها عليه في الاعتماد على الخرافة والشعوذة القريبة إلى الطقوس الوثنية؛ التي تمثل بداءة العقل الإنساني، وانتهت أن أخرجوا جثتها من بئر الساقية. أما «عواد» فقد كانت نهايته صارخًا يجري هائمًا يسب القدر. وعبر رواية «الهؤلاء» مثلت الثورة الفردية حال تلاقي المثقف مع القمع السلطوي؛ فبطل الرواية المثقف الواقع تحت قمع الزعيم «الديحم» تتمثل ثورته الفردية في كونه مخالفًا

لثقافة القمع؛ إذ يلبس ساعة زمنية، ويحمل قلمًا، ويسأل عن علة دوران الأرض عكس ساعات دولة «أبيوط»؛ ليكون محل مطاردة رجال «الهؤلاء» الذين يفشل في معارضتهم.

عبر رواية «حنان» ظهرت الثورية الفردية الرافضة للسلطة المجتمعية، وما تحمل من سلطة سياسية عبر شخصية «الغجري»؛ إذ هو رمزية لفردية تحمل روحًا بوهيمية لا ترتضي القيود والأعراف؛ سواء كانت دينية أو اقتصادية، وهو عبر حال الطيف البوهيمي تلك يحقق للبطلة حلمها في العاطفة بل والحمل كاسرًا قيد كونها متزوجة من «نصر».

الثورة الجنسية:

للمجتمع خصوصية عند التعامل مع القضايا الجنسية والعلاقة الجسدية، فهذا الجانب من أهم المحرمات في المجتمع بما تراكم عليها مع الزمان من تحفظات دينية وقيود اجتماعية زادت من التحفظات الدينية، وأضافت ما لم تضفه الشرائع، ومن الموضوعات المهمة التي تشغل بال الدراسات الثقافية والنقد الثقافي «الجنسانية The Sexuality»، وعبر التعرض للنسق الثقافي للثورة في مجتمع روايات «طوبيا» تظهر الثورة الجنسية عبر رواياته من خلال رؤى متعددة، فعلى سبيل المثال في رواية «تغريبة بني حتحوت» في آخر العصور الوسطى بالشرقThe Middleages، ومع قدوم الحملة الفرنسية بثقافة التنوير The Enlighenment كانوا يعتبرون ظهور النساء في الطرقات ومجالس العشاق عند الأزبكية انحلالاً وخروجًا عن العرف المجتمعي، وكان نموذج الثورية الجنسية بالنسبة لهم وتفعيلها في المجتمع المصري متمثلاً في «بنت الشيخ البكري» التي كانت تقيم علاقات مع الضباط الفرنسيين، مخالفة العرف الديني والمجتمعي. أما على منحى كسر «التابو» والثورة عليه في ظل العلاقات الجنسية المثلية Homosexuality فتظهر في أحداث «التغريبة» أنها وافدة على المجتمع عبر شخصية حفيد «محمد علي باشا» وهو «عباس حلمي باشا» الذي كانت له عادة معاشرة الغلمان، ويظهر في كلام «محمد علي» بحزن وغضب عنه أنه يكره فيه تلك العادة التي كان يقوم بها المماليك أعداؤه، ويفعلها «عباس» أيضًا.

لقد ارتبطت عبر روايات «طوبيا» حال الثورة الجنسية كفكرة وافدة؛ إذ «بيروت» والمجتمع اللبناني يمثلان أكثر المجتمعات العربية انفتاحًا على الغرب، وفي ضوء هذا قدم «طوبيا» شخصية «هيام بيروتي» في رواية «حكاية ريم الجميلة» بما تمثل من ثورة جنسية على عرف قانون الزواج في الأديان، فهي لا تكتفي بكسر إطار العلاقة مع زوجها لتمتد لرجال آخرين، بل وتقدم ثورة على النمط المعتاد في كون العلاقات الجنسية تكون بين ذكر وأنثى. أما عبر رواية «حنان»، فقد قدم «طوبيا» الثورة الجنسية وطبيعتها الوافدة من خلال «الغجري» تلك

الشخصية القادمة من المجهول بلا وطن وهدفه أن يقدم المتعة والسعادة لبطلة الرواية «حنان» أو لأي امرأة، ولا يفكر في مصيره من الحياة، ولا يخشى أن يموت مقتولاً بما يصور تجسيدًا للروح العدمية.

ظهر مصطلح «الثورة الجنسية» بجلاء دلالته في الفكر المعاصر عبر رواية «غرفة المصادفة الأرضية»، وكان يحمل – أيضًا – طبيعة الوفود للشرق، ولكن خلال مصدره في اصطلاح الأيديولوجيات المعاصرة، فقد صرحت «مهجة» التي عرفت مصطلحات الثقافة من «وليد» ذلك الثائر اللاجئ لمصر – برغبتها في المشاركة في الثورة الجنسية التي قامت في أوربا خلال الحرب الباردة رافعة شعار «ممارسة الحب خير من ممارسة الحرب»، وتعتبر تجليًا من تجليات الفكر الوجودي الذي انتشر في أوربا الرأسمالية.

لم يكن «طوبيا» في تعبيره عن الثورة الجنسية بالفاحش في تعبيراته، بل كان صاحب رؤية فكرية تكسر الخط المحظور دون نفور يقع للمتلقي، فيرسم حالات تمرد الشخوص على القيد الجنسي، إذ «يساهم الجنس بذلك في تشابك الأحداث ويؤثر على كل الخصائص الروائية من شخصيات، زمان، مكان، سرد، وصف، ولغة»[٢٤]، عبر طرح ثقافي غير مسفٍّ، بل كثيرًا ما كان يكتفي بوصف لحظة المعاشرة الجنسية بـ «أروع مشهد خلقه الله» بما يكسبها حال قداسة الخلق للحياة تعبر عن المجتمع في تمرده العاطفي والنفسي وتغييره لصورة الغريزة.

الخاتمة:

إن «الصورة الاجتماعية» من أهم القضايا التي تعرض لها الدراسات الثقافية والنقد الثقافي في تحليل العمل الإبداعي، وقد احتلت تفاعلات الشخوص مع البيئة مكانة كبيرة في روايات «طوبيا»، وخلال التحليل الثقافي تتكشف أحوال المجتمع في رواياته وكيف كانت من حيث الظروف التاريخية والسياسية والطبيعة الأيديولوجية والحالة الاقتصادية.

لقد عبرت رواية «ترميم قضية أحمس» عن جانب من القضايا الاجتماعية وصورة المجتمع ومعتقداته التي انعكست على الأفراد، وتفاعلاتهم مع البيئة، وذلك في مصر القديمة زمن قدماء المصريين، وكيف شكلت الثقافة المجتمع.

أما في رواية «تغريبة بني حتحوت» فإن المجتمع كان يتشكل وتعاد صياغته بين حقبة العصور الوسطى، وكيف كانت حياة الناس وقضاياهم الاجتماعية، ثم يحدث التحول مع دخول المجتمع مرحلة العصر الحديث على يد كل من الحملة الفرنسية، ثم عصر محمد علي وخلفائه؛ فتتغاير الأفكار عبر حال الوفود الثقافي من الغرب إلى الشرق، وقد عبر طوبيا عبر البنية الروائية، وتحولات الشخصيات عن ذلك.

أما في رواية «عذراء الغروب»، فتظهر صورة المجتمع من خلال صراع الذكورية والنسوية وتوصيف البعد المادي الاقتصادي لطبقات المجتمع في تلك القرية؛ إذ حَمَّلت الفكرة الذكورية العتيقة «الهانمَ» مسؤولية عدم الإنجاب لتقع في الخيانة، ومن خلال شخصية «العمدة غرباوي» الذي تجتمع له السلطة السياسية كعمدة للقرية مع سطوة رأس المال، فيستغل ذلك في هتك أعراض الفلاحات اللاتي يأتين للخدمة في بيته، كما فعل مع «زكية» التي تزوجها الفلاح البسيط «حسن السبع»، وفي المقابل يظهر أثر الحداثة في مهندسي المشروع الذين يمدون قناة الماء، وتظهر مهندسة المشروع سوسن صورة جديدة للمرأة الحديثة العصرية.

أما في رواية «دوائر عدم الإمكان» فتظهر صورة مجتمع القرية عبر الفقر الطبقي والتخلف العلمي المنتشر بين الأفراد الواقعين تحت سيطرة ضابط الشرطة ومدعي التدين «الحاج حسين»؛ فبعد زواج «هنومة» من «عواد» تُحَمِّل نساء القرية وفلاحات الحقول «هنومة» مسؤولية تأخر الإنجاب، ويرددن وصفها بأنها «أرض بور»، ويظهر الجهل في معالجة القضايا المجتمعية في علاج العقم بوصفة بدائية قريبة من الطقوس الوثنية الجنسانية هي «حلب النجوم»؛ حتى تعالج «هنومة» عقمها وتأخر حملها، ولكن تفشل.

أما رواية «حكاية ريم الجميلة» فعلى النقيض في وصف حال المجتمع؛ حيث تفر «ريم» من سلبيات حياة القرية إلى حياة المدينة وإيقاع «الحداثة» الذي يؤذيها، ثم تصل لنظرة متحيرة بين أي صورة لأي من المجتمعين تختار القديم أم الحديث.

إن «طوبيا» في روايتيه «غرفة المصادفة الأرضية» و«حنان» قدم صورة المجتمع وتحولاته الثقافية مع إشكاليات القضايا النسوية وحال التحول المجتمعي نحو الرأسمالية؛ حيث انتشار السلعية، وكأنه يكشف قبحياته من منظور ثقافي يعي ويحلل الشخوص والأحداث ويرصد المجتمع في ضوء تفاعلات التاريخ والسياسة والاقتصاد، ومثل ذلك «أبناء الصمت».

في ضوء ذلك العرض البحثي يظهر أن روايات «طوبيا» أعطت رؤية ثقافية لقراءة القضايا المجتمعية؛ حيث حملت في داخلها مشكلات وحلولاً في علاقة جدلية تعبر عن حالات متنوعة للمجتمع في عصور مختلفة وظروف متنوعة، ويظهر ذلك عبر تلك النقاط:

- رأى «طوبيا» أن المجتمع المصري في أصله ابن حضارة نهرية إفريقية وأنه يحمل ثقافة خاصة تظهر في صورة المجتمع الأصلية في الريف القديم.
- ناقش «طوبيا» أزمة المجتمع مع التحول من العصور القديمة والوسطى إلى العصر الحديث وما فيه من تغير في الأيديولوجيا أفضى إلى تغير في مسار الأحداث والشخصوص وأعاد تشكيل حركة المجتمع وصورته.
- أظهر «طوبيا» أن المجتمع في أغلب رواياته يعاني من القمع والقهر السلطوي، كما يعاني من كبت حرية الفكر والإبداع وإعطاء الفرد حق التعبير.
- عبر «طوبيا» عن صور متنوعة للمجتمعات وما فيها من شخوص وأحداث تتخفى تحتها إشارات ثقافية، وذلك من خلال المجتمع المصري القديم ومجتمع الرعاة الهكسوس، ثم المجتمع المصري في القرنين الـ١٨ والـ١٩ والمجتمع الفرنسي بثقافته، ثم الروح الإفريقية في السودان وحوض النيل.
- عبر الثقافة الوافدة من الغرب جعل «طوبيا» صورة المجتمع الشرقي المصري تواجه المجتمع الغربي التنويري؛ ليكون بذلك الفكر الجديد مرآة لنقد القضايا الاجتماعية ومشكلات المرأة في المجتمع المصري، كما كشف أن الحداثة الوافدة على المجتمع كما أفادت في أشياء أضرت في أشياء أخرى، ولكن لا مفر منها.

الهوامش:

(١) لسان العرب – جمال الدين أبو المكارم محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي – تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين – مجلد ٥ – دار المعارف القاهرة – مصر – سنة ١٩٨٠ – ص ٤٠١٣.

(٢) القاموس المحيط – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي – تحقيق: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – مؤسسة الرسالة – مصر – ط ٨ – ٢٠٠٥م – ص ٩٢٥.

(٣) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية – جلال الدين سعيد – دار الجنوب للنشر – تونس – ط١ – ٢٠٠٤ – ص: ٤٦٧.

(٤) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة – سعيد علوش – دار الكتاب اللبناني – بيروت – ط١– ١٩٨٥– ص: ٢١١.

(٥) لسان العرب – ابن منظور – مجلد ٣ – ص ٢٨.

(٦) الدراسات الثقافية – زيودين ساردار، بورين فان لون – ترجمة: وفاء عبد القادر – المجلس الأعلى للثقافة – مصر – ٢٠٠٣ – ص ٨.

(٧) علم الاجتماع الثقافي ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي – قباري محمد إسماعيل – منشأة المعارف (د ط)، الإسكندرية، مصر – ط ١ – ١٩٨٢ – ص ١٦.

(٨) الثقافة والهوية والوعي العربي – محمود الضبع – بتانة للنشر والتوزيع – مصر – ط١ – ٢٠١٦ – ص ٢٢.

(٩) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية «إنجليزي – فرنسي – عربي» – أحمد زكي بدوي – مكتبة لبنان – بيروت – ط١ – ١٩٧٨ – ص ٤١٩.

(١٠) النقد الثقافي – عبد الله الغذامي – المركز الثقافي العربي الدار البيضاء – المغرب – ط٣ – ٢٠٠٥– ص ٧٨.

(١١) نقد ثقافي أم نقد أدبي – عبد الله محمد الغذامي، عبد النبي أصطيف – دار الفكر (دمشق) – دار الفكر المعاصر (بيروت) – ط١ – ٢٠٠٤ – ص: ٣٣.

(١٢) دوائر عدم الإمكان – مجيد طوبيا – ص: ٣٥.

(١٣) هكذا في متن الرواية والصواب في اللغة قوله: «وليدًا» بالنصب على المفعولية.

(١٤) غرفة المصادفة الأرضية – مجيد طوبيا – ص: ١١.

(١٥) عادة صوفية ظهرت في العصور الوسطى لاستجلاب النصر وزوال الكروب على غير أصل في الكتاب والسنة.

(١٦) تحديدًا الديانتين الكبيرتين «الإسلام» و«المسيحية» وإن كان الصحفي الذاهب – أيضًا – ألمح لإنكاره ما وراء الطبيعة.

(١٧) لعل هذا السلوك الديني أقرب إلى الاعتقاد الصوفي في قدسية الموتى والقبور، وفي ذلك امتداد ثقافي لأثر الديانة المصـرية القديمة التي كانت تمجد الموت والعالم الآخر؛ إذ من المعلوم في الفقه الإسـلامي أن المصـلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة، ويجوز هدم القبر للمنفعة ونقل الرفات لمكان آخر.

(١٨) النقد الثقافي «تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية» – آرثر أيزابرجر – ص: ٢٢١.

(١٩) الثقافة والمعرفة البشرية – تأليف: ميشيل توماسيللو – ترجمة: شوقي جلال – سلسلة عالم المعرفة – الكويت – عدد: ٣٢٨ – ٢٠٠٦ – ص: ٣٠ .

(٢٠) أبناء الصمت – مجيد طوبيا – ص: ٨.

(٢١) أوراق العذراء – مجيد طوبيا – ص: ١٧.

(٢٢) كتاب الثورات – سلامة موسى – مؤسسة هنداوي – مصر – ٢٠١٥ – ط١ – ص: ١١.

(٢٣) عذراء الغروب – مجيد طوبيا – ص: ٧٢.

(٢٤) أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسـوة – الكبير الداديسـي – مؤسـسـة الرحاب الحديثة للطباعة والنشـر والتوزيع – لبنان – ٢٠١٧ – ط١ – ص: ٩٧.